نجيب محفوظ

زقاق المدق

دار الشروق

١

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة، وأنه تألق يوما فى تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدرى. أى قاهرة أعنى؟.. الفاطمية؟.. المماليك؟ السلاطين؟ علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار، ولكنه على أية حال أثر، وأثر نفيس. كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية، تلك العطفة التاريخية، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك، هذا إلى قدم باد، وتهدم وتخلخل، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذى صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد..!

ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش فى شبه عزلة عما يحدق به من مسارب الدنيا، إلا أنه على رغم ذلك يضج بحياته الخاصة، حياة تتصل فى أعماقها بجذور الحياة الشاملة، وتحتفظ - إلى ذلك - بقدر من أسرار العالم المنطوى.

* * *

آذنت الشمس بالمغيب، والتف زقاق المدق فى غلالة سمراء من شفق الغروب، زاد من سمرتها عمقا أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصنادقية، ثم يصعد صعودا فى غير انتظام، تحف بجانب منه دكان وقهوة وفرن، وتحف بالجانب الآخر دكان ووكالة، ثم ينتهى

Twitter: @ketab_n

سريعا ـ كما انتهى مجده الغابر ـ ببيتين متلاصقين، يتكون كلاهما من طوابق ثلاثة.

سكنت حياة النهار، وسرى دبيب حياة المساء، همسة هنا وهمهمة هناك: يارب يا معين، يارزاق يا كريم. حسن الختام يارب. كل شيء بأمره. مساء الخير يا جماعة.. تفضلوا جاء وقت السمر. اصح يا عم كامل وأغلق الدكان. غير يا سنقر ماء الجوز. أطفئ الفرن يا جعدة. الفص كبس على قلبى. إذا كنا نذوق أهوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهذا من شر أنفسنا.

بيد أن دكانين ـ دكان عم كامل بائع البسبوسة على يمين المدخل وصالون الحلو على يساره ـ يظلان مفتوحين إلى ما بعد الغروب بقليل. ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسيا على عتبة دكانه ـ أو حقه على الأصح ـ يغط فى نومه والمذبة فى حجره، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق. هو كتلة بشرية جسيمة، ينحسر جلبابه عن ساقين كقربتين، وتتدلى خلفه عجيزة كالقبة، مركزها على الكرسى ومحيطها فى الهواء، ذو بطن كالبرميل، وصدر يكاد يتكور ثدياه، لا ترى له رقبة، فبين الكتفين وجه مستدير منتفخ محتقن بالدم، أخفى انتفاخه معالم قسماته. فلا تكاد ترى فى صفحته لا سمات ولا خطوط ولا أنف ولا عينان، وقمة ذلك كله رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة. لا يزال يلهث ويشخر كأنه قطع شوطا عدوا، ولا ينتهى من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه النعاس. قالوا له مرات ستموت بغتة، وسيقتلك الشحم الضاغط على قلبك، وراح يقول ذلك مع القائلين، ولكن ماذا يضيره الموت وحياته نوم متصل؟!

أما صالون الحلو فدكان صغير، يعد فى الزقاق أنيقا، ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفن. وصاحبه شاب متوسط القامة، ميال للبدانة، بيضاوى

Twitter: @ketab_n

الوجه، بارز العينين، ذو شعر مرجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته، يرتدى بدلة، ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الأسطوات!

لبث هذان الشخصان فى دكانيهما فى حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عمالها، وكان آخر من غادرها السيد سليم علوان، يرفل فى جبته وقفطانه، فاتجه صوب الحانطور الذى ينتظره على باب الزقاق، وصعد إليه فى وقار، وملأ مقعده بجسمه المكتنز يتقدمه شاربان شركسيان. ودق الحوذى الجرس بقدمه فرن بقوة، وانحدرت العربة ذات الحصان الواحد إلى الغورية فى طريقها إلى الحلمية، وأغلق البيتان فى الصدر نوافذهما اتقاء البرد، ولاحت أنوار المصابيح وراء خصاصها، وكاد المدق يغرق فى الصمت، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية، عشش الذباب بأسلاكها، وراح يؤمها السمار. هى حجرة مربعة الشكل، فى حكم البالية، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك، فليس لها من مطارح المجد إلا تاريخها، وعدة أرائك تحيط بها. وعند مدخلها كان يكب عامل على تركيب مذياع نصف عمر بجدارها، وتفرق نفر قليل بين مقاعدها يدخنون الجوز ويشربون الشاى. وعلى كثب من المدخل تربع على الأريكة رجل فى الخمسين يرتدى جلبابا ذا بنيقة موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الأفندية ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة! وقد خلع قبقابه على الأرض عند موضع قدميه، وجلس جامدا كالتمثال، صامتا كالأموات، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، كأنه فى دنيا وحده. ثم أقبل على القهوة عجوز مهدم، لم يترك له الدهر عضواً سالمًا، يجره غلام بيسراه، ويحمل تحت إبط يمناه ربابة وكتابا. فسلم الشيخ على الحاضرين، وسار من فوره إلى الأريكة الوسطى فى صدر المكان، واعتلاها بمعونة الغلام، ثم صعد الغلام إلى جانبه، ووضع بينهما الربابة والكتاب. وأخذ الرجل يهيىء نفسه، وهو يتفرس فى

Twitter: @ketab_n

وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن أثر حضوره فى نفوسهم، ثم استقرت عيناه الذابلتان الملتهبتان على صبى القهوة سنقر فى انتظار وقلق، ولما طال انتظاره. ولمس تجاهل الغلام له، خرج عن صمته قائلا بصوت غليظ:

ـ القهوة يا سنقر..!

والتفت الغلام نحوه قليلا، ثم ولاه ظهره بعد تردد دون أن ينبس، بكلمة، ضاربا عن طلبه صفحا. وأدرك العجوز إهمال الغلام له، ولم يكن يتوقع غير ذلك. ولكن جاءت نجدة من السماء، إذ دخل فى تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف العجوز ولاحظ إهمال الصبى، فقال للغلام بلهجة الآمر:

ـ هات قهوة الشاعر يا ولد..

وحدج الشاعر القادم بنظرة امتنان، وقال بلهجة لم تخل من أسى:

ـ شكرا لله يا دكتور بوشى..

فسلم الدكتور عليه، وجلس قريبا منه. وكان الدكتور يرتدى جلبابا وطاقية وقبقابا! هو دكتور أسنان، إلا أنه أخذ فنه من الحياة بغير حاجة إلى ممارسة الطب أو أية مدرسة أخرى. اشتغل فى بدء حياته تمورجيا لطبيب أسنان فى الجمالية، ففقه فنه بحذقه وبرع فيه! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة، وإن كان يفضل الخلع غالبا كأحسن علاج. وربما كان خلع الضرس فى عيادته المتنقلة أليما موجعا، إلا أنه رخيص، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (أغنياء المدق طبعا)، فإذا حدث نزيف ـ وليس هذا بالأمر النادر ـ اعتبر عادة من عند الله؛ وترك منعه أيضا لله!. وقد ركب للمعلم كرشة صاحب القهوة طقما ذهبيا بجنيهين بغير زيادة. وهو يدعى فى الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور، ولعله أول طبيب يأخذ لقبه من مرضاه.

Twitter: @ketab_n

جاء سنقر بالقهوة للشاعر كما أمر الدكتور، فتناول الرجل القدح وأدناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته، وراح يرشف منه رشفات متتابعات حتى أتى عليه، ثم نحاه جانبا. وذكر عند ذاك فحسب سوء سلوك صبى القهوة معه، فحدجه بنظرة شزراء وتمتم ساخطا:

ـ قليل الأدب..

ثم تناول الربابة يجرب أوتارها، متحاميا نظرات الغضب التى أطلقها عليه سنقر، وراح يعزف مطلعا، لبثت قهوة كرشة تسمعه كل مساء عشرين عاما أو يزيد من حياتها، وأخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة، ثم تنحنح وبصق وبسمل، ثم صاح بصوته الغليظ:

أول ما نبتدى اليوم نصلى على النبى.

نبى عربى صفوة ولد عدنان.

يقول أبو سعدة الزناتى..

وقاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذاك يقول:

ـ هس!.. ولا كلمة أخرى.

فرفع بصره الذليل عن الربابة فرأى المعلم كرشه، بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينيه المظلمتين النائمتين، فنظر إليه واجما. وتردد قليلا كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه. وأراد أن يتجاهل شره، فاستدرك منشدا:

يقول أبو سعدة الزناتى..

ولكن المعلم صاح به مغيظا محنقا:

ـ بالقوة تنشد؟!.. انتهى.. انتهى! ألم أنذرك من أسبوع مضى؟!

فلاح الاستياء فى وجه الشاعر، وقال بلهجة ملؤها العتاب:

ـ أراك تكثر من «الكيف»، ثم لا تجد من ضحية سواى!

Twitter: @ketab_n

فصاح المعلم فى غضب وحنق :

ـ رأسى صـاح يا مـخـرف ؛ وأنا أعلم مـا أريد أتحـسب أنى آذن لك بالإنشاد فى قهوتى إذا ما سلقتنى بلسانك القذر ؟ !

فخفف الشاعر من لهجته مستوهبا عطف الرجل الغاضب ، وراح يقول :

ـ هذه قهوتى أيضا ، ألست شاعرها لعشرين عاما خلون ؟ !

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق الماركات :

ـ عرفنا القصص جميعا وحفظناها ، ولا حاجة بنا إلى سردها من جديد ، والناس فى أيامنا هذه لا يريدون الشاعر ، وطالما طالبونى بالراديو ، وها هو ذا الراديو يركب ، فدعنا ورزقك على الله .

فاكفهر وجه الشاعر ، وذكر محسورا أن قهوة «كرشة» آخر ما تبقى له من القـهـوات ، أو من أسـبـاب الرزق فى دنيـاه ، بعـد جـاه عـريض قـديم . وبالأمس القـريب اسـتـغنت عنه كـذلك قـهـوة القلعة . عـمـر طويل ورزق منقطع ، فماذا يفعل بحياته ؟ ! وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد ؟ ! وماذا يخبئ له المستقبل وماذا يضمر لغلامه ؟ ! اشتد به القنوط ، وضاعف قنوطه ما لاح فى وجه المعلم من الجزع والإصرار ، فقال :

ـ رويدك يا معلم كرشة ، إن للهلالى لجدة لا تزول ، ولا يغنى عنها الراديو أبدا . .

ولكن المعلم قال بلهجة قاطعة :

ـ هذا قولك ، ولكنه قول لا يقره الزبائن فلا تخرب بيتى . لقد تغير كل شىء !

فقال الشاعر فى قنوط :

ـ ألم تستمع الأجيال بلا ملل إلى هذه القصص من عهد النبى عليه الصلاة والسلام ؟

Twitter: @ketab_n

فضرب المعلم كرشة على صندوق المركات بقوة وصاح به :

ـ قلت لقد تغير كل شيء!

وتحرك عند ذلك ـ لأول مرة ـ الرجل الجامد الذاهل ـ ذو الجلباب والبنيقة ورباط الرقبة والنظارة الذهبية فصعد بصره إلى سقف القهوة، وتنهد من الأعماق حتى خال المستمعون أنه يزفر فتات كبده، وقال بصوت كالمناجاة :

ـ آه تغير كل شيء. أجل كل شيء يا ستى! كل شيء تغير إلا قلبى فهو يحب آل البيت عامر..

وطامن رأسه ببطء، وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار، فى حركات أخذت فى الضيق رويدا رويدا حتى عاد إلى موضعه الأول من الجمود، وغرق مرة أخرى فى غيبوبة. ولم يلتفت إليه أحد ممن اعتاد أحواله، إلا الشاعر فقد توجه إليه كالمستغيث وقال له برجاء :

ـ يا شيخ درويش أيرضيك هذا؟

ولكنه لم يخرج من غيبوبته ولم ينبس بكلمة، وهنا قدم شخص جديد تعلقت به الأنظار فى إجلال ومودة، وردوا تحيته بأحسن منها. كان السيد رضوان الحسينى ذا طلعة مهيبة، تمتد طولا وعرضا، وتنطوى عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة، ذو لحية صهباء، يشع النور من غرة جبينه، وتقطر صفحته بهاء وسماحة وإيمانا، سار متململا خافض الرأس، وعلى شفتيه ابتسامة تشى بحبه للناس وللدنيا جميعا، واختار مجلسه على المقعد التالى لأريكة الشاعر. وسرعان ما رحب به الشاعر وبثه شكواه. ومنحه السيد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكربه، وكان حاول مرارا أن يثنى المعلم «كرشة» عما اعتزمه من الاستغناء عنه دون جدوى. ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب خاطره، ووعده بأن يبحث لغلامه

Twitter: @ketab_n

عن عمل يرتزق منه، ثم غمر كفه بما جادت به نفسه وهو يهمس فى أذنه «كلنا أبناء آدم، فإذا ألحت عليك الحاجة فاقصد أخاك، والرزق رزق الله والفضل فضله». وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تألقا، شأن الكريم الفاضل يحب الخير ويصنعه، ويزداد بصنعه رضا وجمالا. كان يحرص دائما على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل، أو ينقلب إلى بيته ملوما محسورا. وإنه ليبدو لحبه الخير ولسماحته كما لو كان من الموسرين المثقلين بالمال والمتاع، وإن كان فى الواقع لا يملك إلا البيت الأيمن من الزقاق وبضعة أفدنة بالمرج. وقد وجد فيه سكان بيته ـ المعلم كرشة فى الطابق الثالث، وعم كامل والحلو فى الطابق الأول ـ مالكا طيب القلب والمعاملة، حتى أنه تنازل عن حقه فى الزيادة التى قررها الأمر العسكرى الخاص بالسكن فيما يتعلق بالطابق الأول رحمة بساكنيه البسيطين، فكان رحمة حيث حل وحيث يقيم. وقد كانت حياته ـ وخاصة فى مدارجها الأولى ـ مرتعا للخيبة والألم، فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل، وقطع بين أروقته شوطا طويلا من عمره دون أن يظفر بالعالمية، وابتلى ـ إلى ذلك ـ بفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال، ذاق مرارة الخيبة حتى أترع قلبه باليأس أو كاد، وتجرع غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم، وانطوى على نفسه طويلا فى ظلمة غاشية. ومن دجنة الأحزان أخرجه الإيمان إلى نور الحب، فلم يعد يعرف قلبه كربا ولا هما. انقلب حبا شاملا وخيرا عميما وصبرا جميلا، وطأ أحزان الدنيا بنعليه، وطار بقلبه إلى السماء، وأفرغ حبه على الناس جميعا، وكان كلما نكد الزمان عنتا ازداد صبرا وحبا، رآه الناس يوما يشيع ابنا من أبنائه إلى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه، فأحاطوا به مواسين معزين، لكنه ابتسم لهم، وأشار إلى السماء وهو يقول: «أعطى وأخذ، كل شىء بأمره وكل شىء له، والحزن كفر» فكان هو العزاء. ولذلك قال عنه الدكتور

Twitter: @ketab_n

بوشى : «إذا كنت مريضا فالمس السيد الحسينى يأتك الشفاء . وإذا كنت يائسا فطالع نور غرته يدركك الرجاء ، أو محزونا فاستمع إليه يبادرك الهناء» . وكان وجهه صورة من نفسه ، فهو الجمال الجليل فى أبهى صوره .

أما الشاعر فقد رضى بعض الرضا ، ووجد شيئا من العزاء ، وتزحزح تاركا الأريكة ، وتبعه الغلام وهو يلم الربابة والكتاب . وشد الرجل على يد السيد رضوان الحسينى ، وحيا الجلوس متجاهلا المعلم كرشة ، ثم ألقى نظرة ازدراء على المذياع الذى كاد العامل يفرغ من تثبيته ، وأعطى يده للغلام فجره إلى الخارج ، وغابا عن الأنظار . ودبت الحياة مرة أخرى فى الشيخ درويش ، فأدار رأسه نحو الجهة التى اختفى فيها الذاهبان ، وتأوه قائلا :

ـ ذهب الشاعر وجاء المذياع . هذه سنة الله فى خلقه . وقديما ذكرت فى التاريخ وهو ما يسمى بالإنجليزية (History) وتهجيتها . . (H i s t o r y) .

وقبل أن يختم تهجية الكلمة جاء عم كامل وعباس الحلو بعد أن أغلقا دكانيهما . ظهر الحلو أولا ، وقد غسل وجهه ورجل شعره الضارب للصفرة ، وتبعه عم كامل يتبختر كالمحمل ، ويقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا . وسلما على الحاضرين ، وجلسا جنبا لجنب ، وطلبا الشاى ، ولم يكونا يحلان بمكان حتى يملآه ثرثرة . وقال عباس الحلو :

ـ يا قوم اسمعوا : شكا إلى صديقى عم كامل قال إنه عرضة للموت فى أية لحظة ، وإنه إذا مات فلن يترك ما يدفن به . .

فقال بعض الحاضرين متهكما :

ـ أمة محمد بخير .

وقال البعض الآخر :

Twitter: @ketab_n

ـ إن له لتركة من البسبوسة تكفى لدفن أمة بأسرها .

وضحك الدكتور بوشى وخاطب عم كامل قائلا :

ـ لا تفتأ تذكر الموت . وتالله لتدفننا جميعا بيديك . .

فقال عم كامل بصوت برىء كالأطفال :

ـ اتق الله يا شيخ أنا رجل مسكين . .

واستطرد عباس الحلو قائلا :

ـ يا قوم : عزت على شكاة عم كامل ، ولبسبوسته فضل علينا جميعا غير منكور . فابتعت له كفنا احتياطيا ، واحتفظ به فى مكان حريز لساعة لا مفر منها ، (والتفت إلى عم كامل قائلا) هذا سر أخفيته عنك ، وها أنا أعلنه على الملأ ليكونوا على شهودا .

فأبدى الكثيرون عن اغتباطهم ، متصنعين الجد ، ليجوز الكلام على عم كامل المشهور بسرعة تصديقه ، وأثنوا على مروءة الحلو وكرمه ، وقالوا : إن هذا صنيع خليق به نحو الرجل الذى يحبه ويساكنه شقة واحدة ، ويشاطره العيش كأنه من لحمه ودمه . حتى السيد رضوان الحسينى ابتسم راضيا ، مما جعل عم كامل ينظر إلى الشاب فى سذاجة ودهشة ويقول متسائلا :

ـ أحق ما تقول يا عباس ؟!

فقال الدكتور بوشى :

ـ لا يداخلك الشك يا عم كامل . لقد علمت بما يقول صاحبك ، ورأيت الكفن بعينى رأسى ، وهو كفن قيم وددت لو يكون لى مثله . .

وتحرك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال :

ـ حظ سعيد . الكفن سترة الآخرة . يا كامل تمتع بكفنك قبل أن يتمتع بك . ستكون طعاما مريئا للدود ، فيرعى فى لحمك الهش مثل

Twitter: @ketab_n

البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدعة . ومعناها بالإنجليزى (Frog) وتهجيتها (f r o g) .

وصدق عم كامل ، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجه ، ثم دعا له طويلا ، وانبسط وحمد الله . وارتفع عند ذاك صوت فتى آتيا من الطريق يقول :

ـ مساء الخير . .

واتجه صاحبه إلى بيت السيد رضوان الحسينى . كان القادم حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة . فتى فى العشرين فى مثل لون أبيه الضارب إلى السواد ، ولكنه ممشوق القوام ، تدل ملامحه الدقيقة على الحذق والفتوة والنشاط ، كان يرتدى قميصا من الصوف الأزرق وبنطلونا خاكيا وقبعة وحذاء ثقيلا ، تلوح على سيماه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطانى . وكان ذاك ميعاد عودته من «الأرنس» كما يسمونه ، فرمقه الكثيرون بعين الاعجاب والحسد ، ودعاه صديقه الحلو إلى القهوة ، ولكنه شكره ومضى إلى حال سبيله .

* * *

ساد الظلام الزقاق إلا ما يبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض أضلاعه على جدار الوكالة . ومضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيتين تنطفئ واحدا فى إثر واحد . وأكب سمار القهوة على الدومينو والكومى ، إلا الشيخ درويش فقد أغرق فى ذهوله ، وعم كامل مال رأسه على ثدييه وراح فى سبات . وظل سنقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات فى الصندوق ، والمعلم «كرشة» يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر فى خمول ذوبان الفص فى جوفه ويستنيم إلى سلطنة لذيذة . وتقدمت جحافل الليل ، فغادر السيد رضوان الحسينى القهوة إلى بيته . وتبعه بعد قليل

Twitter: @ketab_n

الدكتور بوشى إلى شقته فى الدور الأول من البيت الثانى. ثم لحق بهما الحلو وعم كامل. وأخذت المقاعد تخلو تباعا، حتى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلا ثلاثة: المعلم والصبى والشيخ درويش. وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم «كرشة». وصعدوا جميعا إلى حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان، وتحلقوا المجمرة، وبدءوا سهرة جديدة لا تنتهى حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وخاطب سنقر الشيخ درويش قائلا برقة:

انتصف الليل يا شيخ درويش..

فانتبه الشيخ إلى صوته، وخلع نظارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه، ثم لبسها من جديد وسوى رباط رقبته ونهض قائما واضعا قدميه فى القبقاب وغادر القهوة دون أن ينبس بكلمة، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الزقاق. كان السكون شاملا، والظلمة ثقيلة، والطرق والدروب خالية مقفرة، فترك لقدميه مقوده، حيث لا دار له ولا غاية، وغاب فى الظلمة.

* * *

كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرسا فى إحدى مدارس الأوقاف، بل كان مدرس لغة إنجليزية!.. وقد عرف بالاجتهاد والنشاط، وأسعفه الحظ أيضا فكان رب أسرة سعيدة. ولما أن انضمت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف، سويت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوى المؤهلات العالية، فاستحال كاتبا بالأوقاف، ونزل من الدرجة السادسة إلى الثامنة، وعدل مرتبه على هذا الأساس، كان من الطبيعى أن يحزن الرجل لمصيره حزنا عميقا وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة، يعلنها حينا، ويكتمها - مقسورا مغلوبا على أمره - أحيانا. ولقد سعى كل مسعى، وقدم الالتماسات، واستشفع الرؤساء، وشكا الحال وكثرة

Twitter: @ketab_n

العيال، دون جدوى. ثم سلم للقنوط بعد أن تحطمت أعصابه أو كادت. واشتهر أمره فى الوزارة كموظف كثير التبرم والشكوى، عظيم اللجاج والعناد، سريع التأثر، لا يكاد يمضى يوم من حياته دون شجار أو اصطدام، كبير الاعتداد بنفسه والتحدى للآخرين. وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف - وكثيرا ما يحدث - تعالى استكبارا، وخاطب خصمه بالإنجليزية، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب، صاح به فى ازدراء شديد «تعلم أولا ثم خاطبنى!». وكانت أنباء شجاره وعناده تتصل برؤسائه أولا فأول وكانوا يتسامحون معه، عطفا عليه من ناحية، وتحاميا لشره من ناحية أخرى، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر إلا بعض الإنذارات، وخصم يوم أو يومين، ولكنه إزداد بكرور الأيام صلفا، حتى تراءى له يوما أن يحرر خطاباته المصلحية باللغة الإنجليزية ففعل. وكان يقول فى تسويغ ذلك أنه موظف فنى لا كغيره من الكتاب. وتعطل عمله مما دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة، ولكن المقدر كان أسرع من حزم المدير، فطلب الرجل يوما مقابلة وكيل الوزارة، ودخل درويش أفندى - كما كان وقتذاك - حجرة الوكيل فى تؤدة ووقار، وحياه تحية الند للند، وبادره قائلا بثقة ويقين:

- يا سعادة الوكيل لقد اختار الله رجله.

فطلب إليه الوكيل أن يفصح عما يريد، فاستدرك قائلا بوقار وجلال:

- أنا رسول الله إليك بكادر جديد.

هكذا ختمت حياته بالأوقاف. وهكذا قطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التى كان واحدا منها. هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسميها، ولم يستبق من آثار الماضى جميعا إلا نظارته الذهبية. ومضى فى عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى. ودلت حياته على أن بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا فى هذه الدنيا المتقيحة بمرارة

Twitter: @ketab_n

الكفاح بلا مأوى ولا مال ولا معين، ثم لا يجدون هما ولا كربا ولا حاجة. ولا جاع يوما ولا تعرى ولا شرد. وانتقل إلى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها. وإذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعا صارت بيتا له، وإذا كان قد حرم مرتبه فالتعلق بالمال قد انقطع عنه، وإذا كان قد خسر الأهل والاصدقاء فالناس جميعا انقلبوا له أهلا. يبلى الجلباب فيأتيه جلباب جديد، ويتمزق رباط الرقبة فيجيئه رباط جديد، ولا يحل مكانا حتى يرحب به ناسه. وبحسبه أن يفتقده المعلم كرشة نفسه - على ذهوله - إذا غاب عن القهوة يوما. ومع ذلك فلم يكن يأتى شيئا مما يعتقد فيه العامة من المعجزات والخوارق وقراءة الغيب. فهو إما ذاهل صامت، أو مرسل القول كما يحب لا يدرى أنى يكون موقعه من النفوس. بيد أنه رجل محبوب مبارك، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرا، ويقولون عنه إنه ولى من أولياء الله الصالحين، يأتيه الوحى باللغتين العربية والإنجليزية.

٢

نظرت إلى المرآة بعين غير ناقدة، أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع الرضا، فعكست المرآة وجها نحيلا مستطيلا فعل الزواق بخديه وحاجبيه وعينيه وشفتيه الأعاجيب. وجعلت تعطفه يمنة، وتعطفه يسرة، وأصابعها تنسق ضفيرتها، مغمغمة بصوت لا يكاد يسمع «لا بأس، جميل، وأيم الله جميل». والحق أن هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاما، والدنيا لا تدع وجها سالما نصف قرن من الزمان. أما جسمها فنحيل، أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق، وأما الصدر فأمسح، بيد أن فستانا حسنا يستره. هذه هى الست سنية عفيفى صاحبة

Twitter: @ketab_n

البيت الثانى بالزقاق، حيث يسكن الدكتور بوشى طابقه الأول، وفى ذلك اليوم كانت تأخذ أهبتها لزيارة الشقة الوسطى التى تقيم بها أم حميدة. ولم يكن من عادتها الإكثار من زيارة أحد، وربما لم تكن تدخل هذه الشقة إلا أول كل شهر لتحصيل الأجرة، إلا أن باعثا جديدا دب فى أعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة. وهكذا غادرت شقتها، ونزلت السلالم، متمتمة برجاء «اللهم حقق الآمال»، ودقت بكفها المعروقة ففتحت لها حميدة. واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة، وقادتها إلى حجرة الضيوف، ثم ذهبت تدعو أمها. كانت الحجرة صغيرة، بها كنبتان من الطراز القديم متقابلتين، وفى الوسط خوان باهت عليه نافضة سجاير، وأما أرضها فمفروشة بحصيرة. ولم يطل بالمرأة الانتظار، فسرعان ما جاءت أم حميدة مهرولة وقد غيرت جلباب البيت، فسلمتا بشوق، وتبادلتا قبلتين، وجلستا جنبا لجنب، وأم حميدة تقول:

ـ أهلاً.. أهلاً.. زارنا النبى يا ست سنية.

كانت أم حميدة ربعة ممتلئة فى الستين، ولكنها معافاة قوية، جاحظة العينين، مجدورة الخدين، ذات صوت غليظ قوى النبرات، فإذا تحدثت فكأنها تزعق، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزال، ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال، لأن زيارة تقوم بها صاحبة الملك أمر قد تسوء عواقبه، وقد ينذر بالخطر. ولكنها وطنت النفس على أن تلبس لكل حال لبوسها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإنها على كلتا الحالتين لقادرة. وكانت بحكم وظيفتها ـ خاطبة وبلانة ـ عميقة الملاحظة كثيرة الكلام. بل كانت لسانا لا يكف ولا يمسك، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحى أو بيت من بيوته، فهى مؤرخة راوية لأخبار السوء ـ على الغالب ـ ومعجم للمنكرات.

Twitter: @ketab_n

وأرادت كعادتها أن تتسلى بالكلام فراحت ترحب بالضيفة، وتطنب فى الثناء عليها، وتروى لها نتفا من أنباء الزقاق والأخبار المجاورة: أما علمت بفضيحة المعلم كرشة الجديدة؟.. هى كسابقاتها، وقد اتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزقت جبته. وحسنية الفرانة ضربت زوجها جعدة أمس حتى بض الدم من جبينه. والسيد رضوان الحسينى الطيب الورع زجر زوجه زجرا شديدا، لماذا يعاملها هذه المعاملة - وهو الرجل الطيب - إن لم تكن شريرة خبيثة!.. الدكتور البوشى احتك بفتاة صغيرة فى المخبأ فى آخر غارة وضربه رجل محترم. كريمة الماوردى تاجر الخشب فرت مع خادمها وبلغ أبوها القسم. طابونة الكفراوى تبيع عيشا مخلوط سرا، إلخ إلخ.

أصغت الست سنية عفيفى بأذن غير واعية لأنها كانت مشغولة بالأمر الذى جاءت من أجله. وقد صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذى طال اختماره بنفسها مهما كلفها الأمر. بيد أنها نازعت المرأة الحديث حتى تتهيأ لها فرصة مواتية. وقد تهيأت هذه الفرصة حين سألتها أم حميدة قائلة:

- وكيف الحال يا ست سنية؟

فعبست قليلا وقالت:

- الحق أنى تعبة يا ست أم حميدة.

فرفعت أم حميدة حاجبيها كالمنزعجة وقالت:

- تعبة؟!.. كفى الله الشر!

وأمسكت ست سنية ريثما تضع حميدة - وكانت دخلت الحجرة فى هذه اللحظة - صينية القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت، ثم قالت بامتعاض:

- تعبة يا ست أم حميدة. أليس من المتعب تحصيل أجور

Twitter: @ketab_n

الدكاكين؟ . . تصورى وقوف امرأة مثلى أمام رجل غريب تطالبه بالأجرة .

وقد خفق قلب أم حميدة لسيرة الأجور ولكنها قالت بنبرات أسيفة :

ـ صدقت يا ستى . . كان الله فى عونك .

ولم تفتها ملاحظة هامة فتساءلت : لماذا تكثر المرأة من ترداد هذه الشكوى؟ . . وذكرت أنها أعادتها على سمعها مرات! . . بل ذكرت أن هذه ثانى أو ثالث مرة تزورها فى غير أول الشهر . وخطر لها خاطر عجيب دهشت له بحكم وظيفتها ، وكانت فى أمثال هذه المسائل خاصة ذات فراسة لا تجارى ، فصممت أن تسير الزائرة من وراء وراء ، فقالت بخبث :

ـ هذه إحدى شرور الوحدة . أنت امرأة وحيدة يا ست سنية . فى البيت وحدك ، وفى الطريق وحدك ، وفى «الفراش» وحدك ، ألا قطعت الوحدة . . وسرت الست سنية بحديث المرأة الذى كأنه يلبى خواطرها ، وقالت وهى تخفى سرورها به :

ـ وما عسى أن أصنع؟ . . أقاربى ذوو أسر ، وأنا لا ارتاح إلا فى بيتى . والحمد لله الذى أغنانى عن الناس جميعا .

وكانت أم حميدة تلحظها بمكر ، فقالت فاتحة آخر الأبواب :

ـ الحمد لله ألف مرة ، ولكن بالله خبرينى لماذا قضيت على نفسك بالعزوبة هذا الدهر الطويل . . ؟!

فخفق فؤاد الست سنية ، ووجدت نفسها وجها لوجه حيال ما تريد ، ولكنها تنهدت بإنكار وقالت بتأفف متكلف :

ـ حسبى ما ذقت من مرارة الزواج . . !

كانت الست سنية عفيفى قد تزوجت فى شبابها من صاحب دكان روائح عطرية ، ولكنه كان زواجا لم يصادفه التوفيق ، فأساء الرجل

Twitter: @ketab_n

معاملتها، وأشقى حياتها، ونهب مالها، ثم تركها أرملة منذ عشرة أعوام. ولبثت أرملة طوال تلك الأعوام لأنها - على حد قولها - كرهت حياتها الزوجية.

ولم يكن هذا القول مجرد كذب تدارى به إهمال الجنس الآخر لها، فقد كرهت الحياة الزوجية حقا، وفرحت باسترداد حريتها وأمنها، وظلت على نفورها من الزواج وفرحها بحريتها عهدا طويلا، ثم أنسيت تلك العاطفة بكرور الزمن ولم تكن تتردد عن تجربة حظها من جديد لو تقدم لطلب يدها طالب. وجعلت تراود الأمل حينا بعد حين، حتى طال به الأمد، فغلبها القنوط، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب، ووطنت النفس على الرضا بحياتها كما هى. ولما كان من الضرورى أن يوجد فى حياة الإنسان شىء تنعقد حوله آماله، شىء يقرر لحياته قيمة ولو وهمية أو سخيفة، فقد وجدت ضالتها كذلك. ومن حسن الطالع أنها لم تكن مما ينتقص امرأة عازبة مثلها، فأولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق المالية الجديدة. وقد كانت فى الأصل تميل قليلا نحو الحرص، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير، فجاءت الهواية الجديدة تؤكد ذاك الميل القديم وتقويه وتقوى به. وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة فى صندوق عاجى صغير أخفته فى أعماق صوان ملابسها، ووزعتها رزما من ذوات الخمس والعشر، تتسلى بمشاهدتها ومعاودة عدها وترتيبها. ولما كانت الأوراق خرسا لا كالنقود المعدنية فقد أمنت الأخطار، ولم يدر بها أحد من شطار المدق على شدة حساسيتهم. وجدت فى حياتها المالية عزاء. وانتحلت منها اعتذارا لعزوبتها، وقالت لنفسها إن أى زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج المرحوم، وبأن يضيع عليها فى غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال، ومع ذلك فما كاد يتسرب إلى قلبها الإيحاء بفكرة الزواج حتى تناست الأعذار والمخاوف جميعا. وكانت أم حميدة المسئولة عن هذا التحول

Twitter: @ketab_n

العجيب، سواء عن قصد أو عن غير قصد، بما قصته عليها مرة من تزويجها لأرملة عجوز، ففكرت فى الأمر على أنه ممكن التحقيق، وسرعان ما استولى على إرادتها، فتدافعت إلى طاعته لا تلوى على شىء. ظنت يوما أنها نسيت الزواج. فإذا بالزواج أملها المنشود الذى لا يغنى عنه شىء من مال أو قهوة أو سجائر أو أوراق مالية جديدة. وجعلت تتساءل فى جزع كيف ضاع ذاك العمر هباء؟.. كيف قطعت عشرة أعوام حتى شارفت الخمسين وحيدة؟!.. وقالت إن هذا هو الجنون، وحملت زوجها المرحوم تبعته، وصممت على أن تكفر عنه اليوم قبل الغد إن أمكن.

وأصغت الخاطبة إلى تأففها المتصنع بفطنة واستهانة وقالت لنفسها: «لا يجوز على مكرك يا مرة». ثم خاطبتها بلهجة تنم عن لوم:

- لا تغالى يا ست سنية. إذا كان حظك الأول قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشارق والمغارب.

فقالت الست سنية وهى تعيد قدح القهوة إلى الصينية شاكرة:

- لا ينبغى لعاقل أن يعاند الحظ إذا تجهم.

فاعترضتها أم حميدة قائلة:

- ما هذا الكلام يا ست العاقلات!.. كفاك وحدة كفاك.

فدقت المرأة صدرها الأمسح بباطن يسراها وقالت بإنكار مصطنع:

- يا خبر. أتريدين الناس على أن يرمونى بالجنون؟!

- أى أناس تعنين؟.. إن أكبر منك يتزوجن كل يوم.

فتضايقت من «أكبر منك» وقالت بصوت منخفض:

- لست من الكبر كما تظنين.. لعن الله الهم.

- ما قصدت هذا يا ست سنية. وما أشك فى أنك مازلت فى حدود الشباب، ولكنه الهم الذى تلتحفين به مختارة.

Twitter: @ketab_n

فارتاحت الست، ولكنها كانت لا تزال مصرة على تمثيل دور من يساق إلى قبول الزواج بلا تعمد ولا رغبة، فتساءلت بعد تردد:

ـ ألا يعيبنى أن أقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة؟

فخاطبت أم حميدة نفسها قائلة: «لماذا قصدتينى إذا يا مرة؟». ثم خاطبت الست قائلة:

ـ كيف يعيبك ما هو شرع وحق!.. أنت ست عاقلة شريفة، والكل يشهد لك بذلك. والزواج نصف الدين يا حبيبتى، وربنا شرعه حكمة، وأمر به النبى عليه الصلاة والسلام.

فقالت سنية بإيمان:

ـ صلى الله عليه وسلم.

ـ كيف لا يا حبيبتى!.. نبى عربى ويحب عبيده!

وكان وجه الست سنية قد تورد تحت قناع الأحمر، وثمل فؤادها سرورا، فقالت وهى تستخرج سيجارتين من علبتها:

ـ ومن يرضى بالزواج منى؟

فثنت أم حميدة سبابة يسراها، ولصقتها بحاجبها، وقالت باستنكار:

ـ ألف رجل ورجل.

فضحكت الست بمجامع قلبها وقالت:

ـ رجل واحد يكفى..

فقالت أم حميدة بيقين:

ـ الرجال جميعا يحبون الزواج فى أعماقهم. ولا يكاد يشكو الزواج إلا المتزوجون. وكم من رجل عازب راغب عن الزواج، ما إن

Twitter: @ketab_n

أقول له: «عندى عروس لك!». حتى تدب فى عينيه اليقظة، ويغلبه الابتسام، ويسألنى فى لهفة لا تخفى: «حقا.. من!.. من؟». الرجل يريد المرأة ولو أقعده الكساح، وهذه حكمة ربنا.

فهزت الست سنية رأسها فى ارتياح وقالت:

ـ جلت حكمته!

ـ نعم يا ست سنية، لذلك خلق الله الدنيا. كان فى وسعه أن يملأها رجالا فحسب، أو نساء فحسب، ولكن خلق الله الذكر والأنثى، ومنحنا العقل كى نفهم مراده، فلا محيد عن الزواج.

فابتسمت الست سنية عفيفى وقالت برقة:

ـ كلامك كالسكر يا ست أم حميدة!

ـ حلى الله دنياك، وآنس قلبك بالزواج الكامل.

فتشجعت الست وقالت:

ـ إن شاء الله، وبفضلك.

ـ أنا امرأة ـ بحمد الله ـ مباركة. زيجاتى لا انفصام لها. ياما عمرت بيوتا، وأنجبت أطفالا، وأسعدت قلوبا، فليكن اعتمادك على الله وعلى.

ـ جزاؤك لن يقدر بمال.

فقالت أم حميدة فى سرها: «لا.. لا يا مرة، ينبغى أن يقدر بمال، وبمال كثير. هلمى إلى صندوق التوفير وأعطينى، وكفاك تقتيرا». ثم قالت بلهجة رزينة شأن رجال الأعمال إذا فرغوا من المقدمات وطرقوا الهام من الأمور:

ـ أظنك تفضلين رجلا متقدما فى السن؟!

لم تدر الأخرى بماذا تجيب. لم تكن تطمع فى الزواج من شاب، ولا كان الشاب بالزوج الذى يناسبها، ولكنها لم ترتح إلى «متقدم فى

Twitter: @ketab_n

السن»، هذه وكان تدرج الحديث قد خلطها بأم حميدة فآنست إليها، واستطاعت أن تقول وهى تضحك لتدارى ارتباكها.

ـ أصوم وأفطر على بصلة!

فضحكت أم حميدة ضحكة عالية رنت رنينا مزعجا، وازدادت اطمئنانا إلى نفاسة الصفقة التى هى بصدد عقدها، ثم قالت بخبث:

ـ صدقت يا ست. والحق أن التجارب دلتنى على أن أسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج، ولكم يناسبك رجل فى الثلاثين أو يزيد قليلا.

فتساءلت المرأة فى قلق:

ـ وهل يوافق؟

ـ يوافق ويوافق!.. أنت سيدة جميلة وغنية!

ـ سلمت من كل سوء!

فقالت أم حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجد والاهتمام:

ـ أقول له سيدة نصف، ولا ولد لها ولا حماة، أدب وكمال. صاحبة دكانين بالحمزاوى وبيت ذى طابقين بالمدق.

فابتسمت الست وقالت تصحح لها ما حسبته هفوة:

ـ بل ذى ثلاثة طوابق.

ولكن الأخرى قالت معترضة:

ـ اثنان فحسب، لأن الطابق الثالث الذى أسكنه لن تقبضى إيجاره مدى حياتى!

فقالت ست سنية فى سرور:

ـ لك عيناى يا ست أم حميدة!

ـ سلمت عيناك. ربنا يهيئ ما فيه الخير.

فهزت رأسها الأخرى كالمتعجبة وقالت:

Twitter: @ketab_n

- يا للعجب! . . جئتك لمجرد الزيارة فانظرى كيف انتهى بنا الحديث؟ . . وكيف أغادر فى حكم المتزوجات؟!

فجارتها أم حميدة فى ضحكها كالمتعجبة أيضا، وإن راحت تقول لنفسها: «يا مرة احتشمى، أتحسبين أن مكرك يجوز على؟!». ثم قالت:

- إرادة ربنا! . . أليس كل شىء بأمره؟!

وعادت الست سنية عفيفى إلى شقتها مسرورة فرحة، بيد أنها حادثت نفسها قائلة: «إيجار شقة مدى الحياة! . . يا لها من امرأة جشعة».

٣

ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الست سنية لها. كانت تمشط شعرها الأسود تفوح منه رائحة الكيروسين. فنظرت أم حميدة إلى الشعر الفاحم اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتى الفتاة، وقالت بأسف:

- واحسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هذا الشعر الجميل!

فبرقت عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وطف، ولاحت فيهما نظرة حادة صارمة، وقالت الفتاة بحدة:

- قمل؟! . . والنبى ما وجد المشط إلا قملتين اثنتين!

- انسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك عشرين قملة؟

فقالت بغير مبالاة:

- كان مضى على رأسى شهران بلا غسيل.

Twitter: @ketab_n

ثم اشتد ساعدها فى التمشيط وهى تجلس جنب أمها. كانت فى العشرين، متوسطة القامة، رشيقة القوام، نحاسية البشرة، يميل وجهها للطول، فى نقاء ورواء، وأميز ما يميزها عينان سوداوان جميلتان، لهما حور بديع فاتن، ولكنها إذا أطبقت شفتيها الرقيقتين وحدت بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها! وقد كان غضبها دائما مما لا يستهان به حتى فى زقاق المدق نفسه. وأمها على ما اشتهرت به من القوة تتحاماها ما استطاعت. قالت لها يوما وهما تتسابان: «لن يلم الله شعثك برجل، فأى رجل يرضى بأن يضم إلى صدره جمرة موقدة!». وكانت تقول فى مرات أخرى: إن جنونا لا شك فيه ينتاب ابنتها حين الغضب، وسمتها لذلك الخَمسين باسم الرياح المعروفة. ومع ذلك كانت تحبها كثيرا وإن كانت فى الحقيقة أمها بالتبنى. كانت الأم الحقيقية شريكة لها فى الاتجار بالمفتقة والموغات، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق فى ظروف سيئة، وأخيرا ماتت بين يديها تاركة طفلتها فى سن الرضاع، فتبنتها أم حميدة، وعهدت بها إلى زوج المعلم كرشة القهوجى فأرضعتها مع ابنها حسين كرشة، فهى أخته بالرضاعة.

مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن تعلق أمها على الزيارة والزائرة، ولما طال الصمت قالت الفتاة:

ـ طالت الزيارة، فيم كنتما تتحدثان؟

فضحكت أمها فى سخرية وتمتمت:

ـ خمنى!

فقالت الفتاة وقد اشتد اهتمامها:

ـ طلبت رفع الإيجار.

ـ لو فعلت لخرجت محمولة على أيدى رجال الإسعاف، ولكنها طلبت خفضه؟

Twitter: @ketab_n

فصاحت حميدة :

ـ هل جنت؟

ـ أجل جنت، ولكن خمنى . .

فنفخت الفتاة وهى تقول :

ـ أتعبتنى!

فأرعشت المرأة حاجبيها وقالت وهى تغمز بعينها :

ـ صاحبتك تروم الزواج!

فتولت الفتاة الدهشة وقالت :

ـ الزواج!

ـ أجل. وتريد شابا. أسفى عليك من شابة عاثرة الحظ لا تجد من يطلب يدها!

فحدجتها الفتاة بنظرة شزراء وقالت وهى تضفر شعرها :

ـ بل أجد كثيرين، ولكنك خاطبة فاشلة تريدين أن تدارى فشلك. وماذا بى مما يعيب؟ ولكن كما قلت امرأة فاشلة، يصدق عليك المثل القائل «باب النجار مخلع».

فابتسمت أم حميدة قائلة :

ـ إذا تزوجت الست سنية عفيفى فلا يصح لامرأة أن تيأس . .

ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة :

ـ لست أجرى وراء الزواج، ولكنه يجرى ورائى أنا، وسأنبذه كثيرا . .

ـ طبعا! أميرة بنت أمراء!

فتغاضت الفتاة على سخرية أمها وقالت بنفس اللهجة الحادة :

ـ أفى هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار؟

Twitter: @ketab_n

ولم تكن الأم فى الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار، ولا تشك فى جمالها، ولكنها كانت كثيرا ما تثور بعجبها وغرورها فقالت باستياء:

ـ لا تسلقى الزقاق بلسانك، إن أهله سادة الدنيا!

ـ سادة دنياك أنت. كلهم كعدمهم، اللهم إلا واحدا به رمق جعلتموه أخى!

وكانت تعنى حسين كرشة أخاها بالرضاعة، فهال أمها الأمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء:

ـ كيف تقولين هذا؟ ما جعلناه أخا، وما نملك أن نصنع أخا ولا أختا، ولكنه أخوك بالرضاعة كما أمر الله..

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة:

ـ ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدى ورضعت أنا من الآخر؟

فلكمتها أمها فى ظهرها وصاحت بها:

ـ قاتلك الله..

فغمغمت الفتاة بازدراء:

ـ زقاق العدم!

ـ أنت تستحقين موظفا قد الدنيا!

فتساءلت بتحد:

ـ هل الموظف إله؟

فتنهدت الأم قائلة:

ـ آه لو تخففين من غلوائك..!

فقلدت لهجة أمها قائلة:

ـ آه لو تنصفين ولو مرة فى العمر!

Twitter: @ketab_n

ـ آكلة شاربة ثم لا تشكرين. أتذكرين كيف أطلقت على لسانك الطويل بسبب جلباب!.

فقالت حميدة بدهشة:

ـ وهل الجلباب شيء يهون؟!.. ما قيمة هذه الدنيا بغير الملابس الجديدة؟! ألا ترين أن الأولى بالفتاة التى لا تجد ما تتزين به من جميل الثياب أن تدفن حية؟!

ثم امتلأ صوتها أسفا وهى تقول مستدركة:

ـ آه لو رأيت بنات المشغل! آه لو رأيت اليهوديات العاملات! كلهن يرفلن فى الثياب الجميلة. أجل ما قيمة الدنيا إذا لم نرتد ما نحب؟!

فقالت الأم باستياء:

ـ أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك، وهيهات أن يهدأ لك بال..

فلم تعبأ قولها وكانت انتهت من تضفير شعرها، فاستخرجت من جيبها مرآة صغيرة، ثبتتها على مسند الكنبة، ثم وقفت أمامها منحنية قليلا لترى صورتها، ثم غمغمت بلهجة تنم عن الإعجاب:

ـ آه يا خسارتك يا حميدة! لماذا توجدين فى هذا الزقاق؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التى لا تميز بين التبر والتراب؟!

ثم دلفت من النافذة الوحيدة فى الحجرة التى تطل على الزقاق، ومدت يديها إلى مصراعيها المفتوحين وجذبتهما حتى لم يعد يفرج بينهما إلا مقدار قيراطين من الفراغ، وارتفقت النافذة ملقية ببصرها إلى الزقاق، متنقلة به من مكان إلى مكان، قائلة وكأنما تخاطب نفسها فى سخرية:

ـ مرحبا يا زقاق الهنا والسعادة. دمت ودام أهلك الأجلاء. يا لحسن هذا المنظر، ويا لجمال هؤلاء الناس. ماذا أرى؟! هذه حسنية الفرانة

Twitter: @ketab_n

جالسة على عتبة الفرن كالزكيبة عينا على الأرغفة وعينا على جعدة زوجها، والرجل يشتغل مخافة أن تنهال عليه لكماتها وركلاتها. وهذا المعلم كرشة القهوجى متطامن الرأس كالنائم وما هو بالنائم. وعم كامل يغط فى نومه، والذباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب. آه. وهذا عباس الحلو يسترق النظر إلى النافذة فى جمال ودلال، ولعله لا يشك فى أن هذه النظرة سترمينى عند قدمه أسيرة لهواه، أدركونى يا هوه قبل التلف. أما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة، رفع عينيه يا أماه وغضهما، ثم رفعهما ثانية، قلنا الأولى مصادفة، والثانية يا سليم بك؟! رباه هذه نظرة ثالثة! ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء؟!.. مصادفة كل يوم فى مثل هذه الساعة؟! ليتك لم تكن زوجا وأبا إذًا لبادلتك نظرة بنظرة، ولقلت لك أهلا وسهلا ومرحبا. هذا كل شىء، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتى يقمل؟!.. أوه.. ها هو ذا الشيخ درويش قادما يضرب الأرض بقبقابه..

وهنا قاطعتها أمها فى سخرية:

ـ ما أحق الشيخ درويش أن يكون زوجا لك!

فلم تلتفت إليها، ورقصت لها عجيزتها وهى تقول:

ـ يا له من رجل مقتدر، يقول إنه أنفق فى حب السيدة زينب مائة ألف، فهل يبخل بعشرة آلاف؟!

ثم تراجعت فجأة كأنها ملت موقفها، وعادت إلى المرآة ملقية إليها نظرا فاحصا، وتنهدت وهى تقول:

ـ يا خسارتك يا حميدة..

Twitter: @ketab_n